عراقيون
من زمن التوهج
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم
العدد (4352) السنة السادسة عشرة - الخميس (17) كانون الثاني 2019
WWW. almadasupplements.com

علي الشوك

2019 - 1929

4
علي الشوك... نموذجاً لثلاث حيوات

علي الشوك، الضَّعفُ حين يتحوّل إلى قوّةِ خلقٍ وإعادة وعي..

فخري كريم

حين كنتُ أكتبُ عن الزمن الجميل الموعود، الذي توسَّدَتْ أحلامُنا ثناياه، كانت تراودني في كلّ مرّة رغبةُ استرجاع بعض من بقايا ضفافهِ، لعلّي أعثرُ عَلى حطامٍ من موروثه، فأتشبّثُ به وأضمُّهً إلى ما تبقّى من حطام دنيانا، لعلّه يتحوّل إلى أيقونةٍ تُجنّبُني الإحساسَ بالندم واللّاجدوى، فيجرفني تيارُ اليأس والحسرة إلى نسيانِ ذلك الزمنِ نفسه.

في كلِّ مرّة أمسك خيطاً ينسلتُ منه، أُمنّي النفس بأنهً قد يؤشّر لعودةِ ماض يكاد يُبشِّرُ بالرجوع مغسولاً بكفّاراتنا التي لم تكن مجرّد أدعية أو نذور، بل أرواحَ آلاف، لا بل ملايين نحرتُهًم الحروب، وألوانُ العسًف والكراهيةِ المُنفلتة والإقصاء على اللون والفكر والنوع، ولربّما لمجرّد العبثِ واللّهو فوق كرسيٍّ السلطة، والمكابرة بوهم سحرِه ودوام سطوته..

لا مبالغةَ في التَغنّي بزهوِ ذاكَ الزمنِ، ولا تعسُّفَ في تعفير جبينِ زمنِ القحطِ الذي نعيشُ، والعثُّ يتسلّلُ منه إلى كلِّ مسامةٍ من مساماتِ حياتنا، وهواؤهُ يتضمّخُ برائحةً الموت وطعمه.. زمنٌ تغيَّرَ فيه حتّى عزرائيلُ مَلَكُ المَوت، إذ لم يعُد يتأنَّى كما كان عليه في الزمن الجميل، فلا يُخطئ قراءةَ سجلّ ولا يتعجّلُ، ولا يُقدِّمُ أجَلاً أو يندفعُ بلا تَرَوٍّ كماً يفعلُ الآن، إذ يحصِدُ أرواحاً لم تينَعْ بعدُ ولم يَحِنْ قطافُها..!

لمَ كانت لكلِّ شيءٍ في الزمنِ الجميل نكهةُ الحياة.. حَياة إنسانٍ سَوِيٍّ، وما تُعبّر عنها من سلوكٍ، يتمثّلُ فيه أو تًوصيف لمعانيه ومآثرِه وتجلّياتها.. بل والجرأة في الإفصاح عن مكنوناته العميقة العصيّة على البوح، حينما تُجسِّدُ جُرحاً أو ما يُشبِهِ العيب.

البطولةُ نفسُها بطابعها التراجيدي ودلالاتها، أمستْ إحدى ظواهرِ ذاك الزمن، حفرتْ معانيها عميقاً في وجدان المَجتمع العراقيِّ وأضفتْ على سويّة أجيال تعاقبت فيه أحزاناً وقهراً وشجناً مكبوتاً. وكأنَّ القدرَ أراد للعراقي أن يظلَّ مُنتَهَكاً، ترهّلتْ وسائلُ فرحه وأشواقه وتجذّرتْ في روحه مكامنُ اللوعة والأسى والفجيعة. فالمفهومُ البطوليّ، تجاوزَ رمزيَّتَه الفرديّة، بعد أنْ صار المجتمعُ موضوعاً له. ولم تَعُد المآثرُ البطوليّةُ لزمنِ علي الشوك تتجسّدُ في قوّةٍ تحملُ التعذيبَ والاستعدادَ للموتِ والتضحية بمباهج الحياة ووهاد الاستقرار، وإنما الجُرأةُ أيضاً على الاعترافِ بالضعفِ في مواجهة عذاباتِ الجسد، وتعريةِ الذات والقصور، في تجنُّب الانكسارِ وما يُفضي إليه من تداعياتٍ وتساؤلاتٍ بينَ الأهلِ وفي المجتمع.

إنَّ البطولةَ كقوّةِ إرادة واستعداد على المواجهة والموت، تجدُ تعبيرَها النقيضَ في الضعف، ليُشكِّلا معاً نسيجاً مترابطاً للكينونة الإنسانية، ولن تتكاملَ وتتوازنَ من دونِ تداخلِ وتشابكِ مظهريهما "القوّةُ والضعفُ الإنسانيُّ" وهما يُشكِّلان معاً كيانَ الإنسانِ الطبيعيِّ المتوازن...!

في رمزيّة البطولة، تلتقي المتناقضاتُ كلُّها من دون أنْ تتشوّهُ المعاني. فالبطلُ إذ يواجهُ العذابَ دفاعاً عن حقّ أو صيانة سرٍّ قد يتسبّبُ الكشفُ عنه إلحاقَ الأذى بقضيّته أو تعريضِ مصائرِ آخرين إلى الخطر، يتشبّثُ بكلّ ما يَستمدُّ منه طاقةَ الصمودِ وهو يواجهُ نقاطَ ضعفه الإنسانيِّ ويتعالى على عذاباتِه: الإيمانُ العميقُ بالمبادئ، وقوّةُ المُثُلِ والعقيدة، والقيم الاجتماعية، وأعرافُ العشيرة، ونظرةُ الحبيبةَ وهيَ ترى فيه عائداً، سحرَ حُلمها المرتجى..

تفتَّحَ وَعيي على مشارف ذاك الزمنِ الجميل. إذ كنتُ مسكوناً بقيم مدينة صغيرة نائية تجتمعُ فيها تناقضاتُ القريةِ وتجلّيات مظاهرِ الحضارة الآتية من وراء البحار. وحين أخذتني بغدادُ لتُعيدَ تكويني، ولتغمرَني في ضجيج تجاذباتِها الاجتماعية والسياسية والثقافية وصخبِ فوضاها، وفيوضِ جمالياتها الأسرة، عمّدتْني كرحّالة يبحثُ عن ذاته، ويُريدُ لها أن تتكوّنَ على وقعٍ ينفضُ عنه ما عَلِقَ بها من غبار طفولة ظلّتْ تبحَثُ عن حدود اللهِ وراء أسوارِ المدينةً الصغيرة النائية التي يبدو كلُّ شيء فيها موضوعاً للتساؤل..!

يومَها لم أسمعْ أو أقرأ لعلي الشوك وعشرات الأصواتِ المُبهرةِ من زمن التوهُّج والتكوين، بل شاءت الصدفةُ أن أكون على مسافة منهم، يفصلني عنهم فارقُ العمر وخزينُ الثقافة والمعرفة، وهَمُّ القلقِ والتردُّدِ في البحث عن سبلِ للنفاذ إلى عوالمهم لعلَّ بالإمكانِ اختزالَها وتحويلً كوامنها إلى زوّادة عمرٍ آت، بعضُه مضمرٌ وأكثرهُ سرٌّ يحتويه الغيبُ، ولا سبيلَ للتعرُّفِ على متاهاتها..

كانَ على الشوك علماً، يتوهّجُ بثقافة، تتميّزُ بالتنوّع والغنى المعرفيِّ والثقافيِّ، والتعدُّد في الاهتمامَ باتجاهاتها الفكريّةِ ومدارسها الفنيّة، غيرَ هيّاب في تطويعها والتفاعلِ معها وهو يكتب ويؤلّفُ ليبتكرَ لنفسه أسلوباً يُميّزه، وينحتُ مسلّةً جماليّةً قوامُها السردُ والموسيقى ونقدُ النقد، متّكئاً على معرفةٍ بالعلوم والرياضياتِ ملتقطاً شذرات من كلّ ميدانٍ من ميادينها متماهياً في بحورها وتجلّياتها.

توهّجتْ ثقافةُ الشوك في زمنِ الصعودِ والانتصارات التي شهدتَها البشريّةُ بعدَ الحرب العالميّة الثانيةِ والانتصارِ على الفاشيّة والنازية، وتركت بصماتها في كلّ ميدانٍ من ميادين العلوم والثقافة والمعرفة بتنوّعها وتعدُّد حقولها وتطبيقاتها ومنجزاتها في المجتمع والطبيعة وسبر أغوار الأكوانِ البعيدة. حيث غزا الإنسانُ الفضاءَ الخارجيَّ، ودار كاكارين لأوّل مرّة حول الكرة الأرضيّة. وشهدَ الناسُ كلّ يوم على الأرض ما يجعلهم أقربَ إلى أن يكونوا أسيادَ مصائرهم، وما يُوحي لهم بقرب انعتاقِ العالم من أسر عبوديّةِ التخلّف والجهل والاستغلالِ وصروفها وأرزائها وتداعياتِها على الحياة وتحدّيات المستقبل.

احتوى ذاك الزمنُ الواعدُ تناقضاتِ عصر التحوّلِ الذي قيل إنه يشارفُ على كسرِ سياق نظام الاستغلال، مع ما يُثيرُه من تساؤلات محيِّرة عن سيرورته، وتجاذبات لم يكنْ من السهل تمثّلُ أبعادِها، ولا تَجنُّبُ التورّطِ في استقطاباتها، من دون إحكام الفكرِ وما تبلورُه من اندفاعات أو انحيازات ليست محكومةً في كلّ حالٍ بما تعكسه من مصالحَ طبقيّة أو اجتماعية أو تكرّسه من يقين، فالعصرُ بسماتهِ المُهيمنة كان شديدَ الالتباس، تعصفُ به قيمُ التحرّرِ والعدالة الاجتماعية والتشوّف الإنسانيِّ لعالَم يندفعُ ليتجاوزَ كلَّ قديم بالٍ، وتفكّك آلياتِ إعادةِ إنتاج منظومته، بفعل تَناقضاتِ النظام التناحريّة..

كان علي الشوك نموذجَ المثقّفَ المهموم بقضايا عصره المتحوّل، وهو الآتي من مجتمع تَظهرُ فيه كلُّ تلكَ التناقضاتِ بوضوحٍ كافٍ ليتمكّنَ مثلُه من التقاط الأبعاد التناحريّة المستحكمة في النظام الرأسَماليِّ المَتطوّر، حتَى يبدو "نظريّاً" كأنّه على "عتبة الانتقالِ إلى النظام الجديد الواعد"!

وقد وجدَ في مجتمعه العراقيِّ، وهو يعودُ ليتفاعلَ فيه مع الجديد، صراعاً مكشوفاً بين القديم المترهِّل المثقلِ بارتكاباته، وقوى التَحوّل والتقدُّم وما تُبشِّرُ بهِ من تحرُّرٍ ومساواة وعدالة اجتماعيَّة وانعتاقٍ من أسْرِ التَحريم والَموروثِ المُخاتل. لم تكن قَد اتّضحَت في تلك المرحلة المبكّرة بعد، مظاهرُ الصراع المستور والمواجهةَ المُضمَرةَ بين القوى السياسيّة المتحالفة المضادّةَ للنظام القديم، والمصالح التي تربطُ بعضَها مع قوى وامتداداَت ذاك النظام، ممّا قد يجعلُ منها أدواتِ ارتداد، وَ"حصانَ طروادة" تُجهضُ عمليّة التغيير والتحوّل الثوري. وكان صعباً على المثقّف في ظروف الصراع الوطني التحرّري المحتدم، أن يُميطَ اللِّثام عن الأبعاد الاجتماعيّة والطبقيّة التي تتحكّمُ في الاصطفافاتِ السياسية في وضعِ "محكوم بتناقضات مرحلَة تداخلِ المصالح" التي تلتقي حول أهدافَ التحرُّر واستعادة السيادة والاستقلالِ الوطني. وفي مجتمع تتحكّمُ فيه قيمُ وأعرافُ وتقاليدُ ماَ قبل الدولَة، ولم تبرزْ فيه المعالمُ الطبقيّة المعبِّرةُ عن نزعات ومصالحَ طبقاتها وحواملها السياسيّة التي تميِّز بعضَها عن البعض الآخر. وما كان سائداً في المجتمع العراقيِّ في مشارف خمسينيّات القرن العشرين، عشيّةَ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ نهوضٌ جماهيريٌّ معبِّرٌ عن القوى المعنيّة بالثورة والتغيير، يتداخلُ في إطاره تجمّعٌ غيرُ متجانسٍ من حيث التركيبُ الطبقيّ والسياسيُّ كان من شأنه إضفاءُ مزيدٍ من التعقيد على المشهد ولوحة الصراع السياسيّ.

ولَعبَ النظامُ السياسيّ الملكيّ شبهُ الإقطاعيّ شبه الاستعماريِّ، دوراً في التمويه والاستقطاب والتمايز، فغيابُ الحريّات السياسيّة – الحزبيةَ وتفاقمُ مظاهرِ الاستغلال وانعدام العدالة الاجتماعية، وتَمركزُ الهدف الوطنيِّ العَام حول إنهاء نظام التبعيّة والانصياع للأجنبيِّ، لم يتركْ خياراً حُرّاً مفتوحاً في الانتماء والانحيازِ للشرائح والأوساط الاجتماعية الأكثر وعياً واستعداداً للانخراطِ في الفعل الوطنيّ العام، غيرَ الانضمام إلى الحزب الشيوعيّ العراقيّ أو حملِ مشروعه وشعاراته. فالاستقطابُ تمحورَ في الخيار بينَ الحركة القوميّة العربيّة التي لم تنطوِ على برنامج اجتماعيٍّ جذريّ يُلامسُ نبضَ أغلبيَة المجتمع المَتّسم بطابعهِ الفَلّاحي السائد، والفئات الطبقيَة من شغيلة اليدِ والفكر. وانعكسَ هذا الواقعُ بكلِّ ملابساته وتداخلاته على المثقّفين بشكل خاصٍّ لكونهم الأكثَر وعيَاً وحساسيّة إزاءَ مظاهر الظلم الاجتماعي والقمع السياسي وانعدام الحريّات. وجعل الغالبية منهم تنحازُ إلى المشروع التغييريّ الذي كان الأكثر وضوحاً ببرنامجه الاجتماعيِّ الاقتصاديّ وأهدافهِ وشعاراته السياسيّةِ في التعبير عمّا يتطلّعون إليه من إصلاح وتقدّم وتحوّلات اجتماعيّة وتطلّعات شعبية، جًسّدتْ مَبادئ وقيَمَ الحريّة والمساواةَ والعدالة الاجتماعيّةِ والنزوع الإنسانيّ. وزادتْ في قوّة المشهد وتعبيراته، الموجةُ العالميّةُ المُنبّئة بانبثاق عصرٍ جديد وانعطاف حادٍّ دشّنته ثورةُ أكتوبر الإشتراكيّةُ في روسياً، وكرّسته منجزاتُ دولتها في سائر ميادين التطوُّرِ والتقدُّم.

عادَ علي الشوك من الولاياَت الأميركيّةِ إلى العراق، وهو مُشبَّعُ بالمعادلات والمنحنياتِ والأرقام التي أتت بها آخرُ علوم الفيزياء والرياضيَات، وتكاملت مع انشغالَه بمصادرِ الإلهام الإبداعيّ الثقافيّ كرافد آخر يُعمِّقُ إحساسَه بالواقع الاجتماعي وما يسود فيه من أسبابِ التمايزِ والظلم ومُصادرة الإرادة.

انضمَّ علي الشوك، وهو مهمومُ بكلّ هذه الهواجس، إلى الحزب الشيوعيّ، وصار من أبرزِ مثقّفيه، وتحوّل إلى كادرٍ قياديٍّ منظم للمثقّفين، وهو لم يكنْ بانتمائه هذا شذوذاً عن القاعدة السائدة، وإنما تعبيراً عن ظاهرة سادتِ الوسطَ الثقافيّ، بمفهومه العام والإبداعيِّ، حيث بدا كما لوِ أنّ كلّ مثقّف ومبدع، كاتباً كانَ أو روائيّاً، فنّاناً تشكيليّاً أَو مسرحيّاً ومُمثّلاً، طبيباً ومهندساً وأُستاذاً جامعيّاً أو مُعلّماً، عضواً في الحزب الشيوعيّ أو على مقربةٍ منه. وصار المشهدُ يتّسمُ بطابعه الغرائبيِّ، وهو يؤشّرِ إلى احتواء الحزبِ في تلك المرحلة لأبناء الإقطاعيّين والملّاكينَ الكبارِ وأبناء العوائل من الطبقةَ الوسطي والبرجوازيّة النافذةِ من دون استثناءَ أبناء النُّخبة الحاكمة وأصفياء طبقتها.

ابتدأَتْ تلك المرحلةُ في وقت مبكّر مع الإرهاصات الأولى لانبثاق بواكيرِ الحركة الفَكريّةِ الماركسيّة منتصفَ العشرينيّاتَ من القرنَ العشرين وظلّت تنمو وتتوسّعُ لَتُصبحَ ظاهرةً طاغيةً في الخمسينيّات منه، لتبدأ مسيرةُ الانكفاء والضمور بعد الانتكاسة المُروّعة في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الدمويّ، حيث بدأتْ عمليّاتُ الانتقام الارتداديِّ من الشعب العراقيّ على ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ من قبَلِ حزب البعث العربي الاشتراكي بالنيابة عن حاضنته، المخابراتِ الأميركيّة، وكانت تلك لحظةُ الانهيارِ الذي لم يتوقّفْ حتى يومنا هذا، أدّتْ إلى تدميرِ كلِّ بُنى التطوّرِ والتحديث، وتفتيت نواتاتِ التحوّل والتقدّمَ الاجتماعيّ – الاقتصاديّ السياسيّ للعراق، وإجهاضِ حركتها وإفراغها من نزوعها التقدميّ.

كانَ علي الشوك ومجايلوه من الكتّاب والمثقّفين والفنّانين يُغْنُونَ الحركةَ الثقافيّة ويمدّونها بكلّ ما يثريها بالجديد، مما يُعمِّقُ من وعي المجتمع ويستنهضُ فيه عواملَ التمرُّد على واقعه المشوّهِ المتخلِّف. وليس بمعزلٍ عن نهوض الحركة الثقافيّة السياسيّة، شهدتْ تلك السنوات منذ أوائل الأربعينيّاتِ من القرن العشرين، ازدهاراً غيرَ مسبوقٍ في كلّ ميادين الثقافة والمعرفة والتعليم، حيث انًبعثت من العراق الحداثةُ الشعريّة مُمَثّلةً بريادة نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وريادةِ المدارس الفنيّةِ في الحركة التشكيليّةِ ممثّلةً بجواد سليم وفائق حسن ومحمود صبري، ونهوض المسرحِ بريادة حقي الشبلي ويوسف العاني وزينبَ وخليل شوقي وناهدة الرمّاح وسامي عبد الحميد. وقد كان بين أبرز مظاهر التقدّمِ في تلك المرحلة التطوّرُ في التعليم الجامعي، حيث برزت قاماتُ تركت بصماتِها في جيلٍ ظلّ مثلاً يُقتدى حتى يومنا هذا، إذ لن تنسى الذاكرةُ العراقيّة أسماء عبد الجبار عبد الله وعلي الوردي ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر وصفاء الحافظ، ونُخب علمية في ميادين الطبّ والعمارة والهندسة والقانون والصحافة والأدب وهي تحتلُّ مواقعَ الصدارةِ في تاريخ العراق الحديث.

لم يستَطع علي الشوك تحمُّلَ التعذيب المروّع الذي تعرّض له في قصر النهاية على أيدي زبانيةِ الحرس القومي الفاشي البعثي، كما تعرّض له الآلافُ من العراقيين، استُشهدَ منهم مَن استشهد وتحوّل البعضُ الآخرُ إلى حوامل لجراحات جيلٍ لم تكن جذوةُ الإيمان قد انطفأتْ في أعماقهم، بلْ ظلّتْ مصدرَ عذابٍ قد يفوق في لحظات استذكارٍ ويقظة، معاناةُ التعذيب والقسر، ومحاولاتً كسر إرادة الإنسان وهو يُحاولُ جاهداً الاحتفاظ بنقاوة ضميره ووجدانه.

لم تكن جريمةُ البعث تتمثّلُ في التعذيب والموت الذي غيّبَ الآلاف في قصر النهاية وأقبية أجهزةِ الأمن والمخابراتِ طوالَ عهدَي حكمه فحسب، بل تجسّدها أيضاً كسر إرادة الآلاف من أفضل العقول والكفاءات من المثقّفين والناس الأخيار، وجعلهم أسرى الإحساسِ بالذنب والانقطاع قسراً عن عوالم الحلم الذي راودهم، بسبب ضعفَ إنسانيّ أمام قطعانٍ من وحوش ضارية في هيئة بشر. وقد دفع المجتمعُ العراقيُّ ثمناً باهظاً لتلك الجريمة، سواءً بشكل مباشر عبر حرمانه من طاقاتهم الخلّاقة، أو ما انعكس في أوساطهِ من الآثار الجانبيّة التي أصبحت في حالات غيرِ قليلة مظاهرَ مرَضيّة خلفتّها حالات الانكسارِ الداخلي لمن حوّلتهم الوحشيّةُ البعثيّةُ إلى أفرادٍ يتوارونَ في حواشي المجتمع، وينكفئون على جراحاتِهم الداخلية.

واصل علي الشوك، بعد خروجه الدامي من مجزرة قصر النهاية حياةً أراد لها أن تكون تجاوزاً وليس انقطاعاً عن ماضيه المضيء، محاولاً بكلّ ما فيه من طاقة الإبداع والتوق الإنسانيِّ أن يُرمِّمَ انكساراتِه، خيباته، شكوكَهُ وهواجسَه وتساؤلاته التي صارت كلُّها عبئاً مضنياً في محيطٍ يبعَث على مزيد من الشكوك. وكما كان عليه دائماً صار أكثرَ انكباباً على القراءة، لكنَّ الموسيقى ظلّت المحرّكَ الذي يتسلّلُ إلى أعماقه المُحبَطة، فيعيدُ إليها السكينةَ والأحساسَ بمعنى الوجود، وسحرِ الحياة وعنفوانها، وبقي الشوك رغم انشغالاته بترميم ما انكسرَ في روحه مشدوداً إلى عمليّة إبداع خلّاق تشكّل قوّة تجديد واستعادة عافية، فبدأ في كتابة الرواية، محاولةً منه بتجريب بناء حيوات رأى في بعض أبطالها انكساراً قابلاً للمعافاة، وفي البعض الآخر كائنات متمرّدةً على التقاليد، مرفوضةً بحكم العادة والمألوف.

قد ينسى علي الشوك في لحظات استذكاراته، وهو يَرسُمُ أبطالَه أحياناً محكوماً بدواعي التمرّد على كلّ مألوف، كما لو أنه يعيد صياغة بيئة مضادة لقوىً كانت سبباً في أنكسارِ جيله، ولكنهً إذ يفعلُ ذلك يُضفي ظلالَ شكوكٍ حول مدى براءة دوافعه الإبداعية، ويُعمِّقُ عُزلةَ أبطاله عن محيطهم التاريخيِّ وقد يُشوِّهُ دوافعَ سلوكه كروائيّ بإسقاط رغبته الشخصيّة على بعضهم وتلبيسهِم طابعاً متخيّلاً غرائبياً يضيق بهم زمن الرواية وأمكنتها..

انتقلَ علي الشوك إلى الرواية أملاً في بناء مختبرٍ لتشريح أبطالِ رواياته وإعادة تخليقهم مُضفياً على نماذج منهم، مجازات مقتطعة من لوحة حياته وإسقاطاتها، فاته أن يعيش تجاربَها، متحرِّراً من قيودٍ فرضها انحيازُه الآيديولوجيُّ والتزامه الحزبيّ.. وكان التشدّدُ والتزمّتُ والازدواجيّة السلوكيّةُ معيارَهما ومحدّداتهما المفهوميّة..

في أواخرِ السبعينيّات، حين توضّحت معالمُ سياسةِ نظام البعث الكارثيّة، خرج علي الشوك من العراق إلى حيثُ يجدُ الحمايةَ الذاتيّة من احتمال انكسارٍ جديد. وكأنّه بموقفه هذا يُعيدُ إلى ذاكرته مشهدَ مواجهة جلّاده في قصر النهاية، فيتحدّاه ويُظهره مجرّدَ شبه إنسان، مسخ، يتضاءلُ أمامَ ناظريه فيسقطُ تحتَ ثقَل جرائمه، مكسورَ الإرادة، فيتعرّى وينهار...

كان خروجُه من العراق تعافياً وإعادةَ تكوينِ مُبرّءاً من عوالق زمن التعثّر والانكفاء وتجاوزاً للقطيعة مع قامته كإنسانٍ يستردُّ ما اغتُصِب منه، والعودة إلى زمنِ التوهُّج..

يقول علي الشوك، كلّما أرادّ أن يتوقّف عند محطّات إبداعه الفكريِّ والأدبيّ، ان كتابه "الأُطروحة الفنطازية" يظلُّ يحتلّ موقعاً أثيراً في مسيرة عطائه، فريداً من نوعه في العالم العربيِّ، ويجدُ في اعترافِ كلٍّ من أدونيس ومحمود درويش بقيمة الأطروحة دالّةً تُكرّسُ قيمتَها وسعةَ تأثيرها. ويرى الشوك أنَّ "الأُطروحةَ الفنطازية" كرّستَهُ كاتباً ذاع صيتُه بين أبرزِ مجايليه من الكتّاب والمبدعين وجوازَ مرورٍ إلى عالمِ الكتابة والأدب. والأطروحةُ قد تصلُحُ مفتاحاً لفهم شخصيّته التي تجمع بين الانفتاح على العلم المجرّد الملغوم بالمعادلات الرياضيّةِ ومتاهات نظريّاتِ الفيزياء والإبحارِ في عوالم الأدبِ والفنون، ومنهما تمكّنَ من تطويع علم الرياضيّات لصياغةِ عملٍ أدبيٍّ رفيعِ المستوى.

علي الشوك، إذ يكتبُ في مذكّراته أنّه صار نزيلَ "قاعة المُعترفين" تحت التعذيب، ويُقرُّ بأنّه لم يستطع الصمودَ أمام التعذيبَ، يُظهرُ زاويةً أخرى مَن سمات ناس الزمن الجميل وفضائله... إنّه لم يُكابر ولم يدَّع أو يُبرِّرْ ويسوّقْ أكاذيبَ ليُزيِّنَ صورتَهُ كضَحيّة نهج أو سياسة خاطئة أو ممارساتٍ فظّة، بل اكتفى بأنه "اعترَف"..!

لكنَّ هذا الاعترافَ لا يكفي، فها هو يصفُ مشهدَ قائد شيوعيٍّ جيء به من قاعة الصامدين بشموخ أمام الجلّاد، محاولةً في كسر إرادته ليتفرّجَ عبر شاشة التلفزيون على اعترافات قياديٍّ انهار؛ يقول علي الشوك: "لم يبقَ سوى دقائق ثم طلبَ بتعالٍ إعادتَهُ إلى محبسه»، مشمئزّاً من دون أن يتشفّى..!

علي الشوك، وقد اختارَ المنفى، حاولَ أنْ يسترجعَ كلَّ ما هو مُمكنٌ من ماضيه قبلَ الانكسار، وإذا لم تكنْ رواياتُه تعكسُ عودةَ الوعي هذه أو أنَّ بعضَها خدشَ سريرةَ أصدقاء له ومُحبِّينَ وأثارتْ في ما بينهم تساؤلات خارجَ سياقات العمليّة الإبداعيّة، فإنّ مذكّراتَه تردُّ على هواجسِهم إذ تعكسُ كينونةً عصيّةً على الانكسار.

بغداد/ ١٤ كانون الأول ٢٠١٦

مقدمة كتاب علي الشوك "الكتابة والحياة"

علي الشـوك... نموذجاً لثلاث حيوات

لـؤي عـبـد الإلـه

يقول توماس مان إن حياة أي إنسان هي ليست حياته فقط بل حياة جيله وعصره. ولعلي أجد في الفقيد علي الشوك نموذجاً لثلاث حيوات تعاقبت وتزامنت مع بعضها بعضا: فحياته الشخصية التي أشار في مكان ما إلى محفزاتها الأربعة: الرياضيات والموسيقى والأدب والمرأة. وحياة جيله بأفكاره وقناعاته واهتماماته وحياة عصره بانتمائه السياسي وقناعاته الفلسفية العميقة.

ولعل الرياضيات هي ما يميزه عن أبناء جيله الذين رحل أغلبهم قبله: فؤاد التكرلي، نجيب المانع، غائب طعمة فرمان، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي، وآخرون. وكل هؤلاء ولدوا بين عامي ١٩٢٦ و١٩٣٠. تلك الفترة التي بدأ العراق يخرج من معطف الإمبراطورية العثمانية المنتمي إلى القرون الوسطى، ويدخل في العصر الحديث.

جيل علي الشوك واجه هذا التحول المفاجئ: الدخول المتأخر في عصر الحداثة مع ظهور ملامح عصرية لبغداد من مطاعم وفنادق ومقاه وشوارع فسيحة ومحطات قطار وباصات وبيوت حديثة بشيء من القطيعة مع الأجيال التي سبقتهم، وفي الوقت نفسه مع النظام الذي صاغه المحتلون البريطانيون للعراق. وهذا العالم الجديد يمكن تلمسه في رواية غائب طعمة فرمان: خمسة أصوات: بغداد خلال عقد الخمسينيات من القرن الماضي.

ولعل انتماء علي الشوك لجيله وعصره تمثل في الارتباط المبكر بالحركة الشيوعية في العراق، رغم خلفيته الطبقية إذا جاز القول.

كان هذا الانتماء بالنسبة إليه رومانسياً أكثر منه عقائدياً محضاً. مع ذلك فقد دفع ثمناً باهظاً حين اعتقل بعد انقلاب ٨ فبراير (شباط) الدموي عام ١٩٦٣.

الاختلاف الأساسي مع أبناء جيله هو ولعه بالرياضيات الذي دفعه إلى ترك دراسة الهندسة المعمارية في جامعة بيروت والتحول إلى الرياضيات. مع ذلك كان الفقيد علي الشوك مشدوداً إلى ما هو نقيض الرياضيات: الأدب. فبالقدر الذي تطالب الرياضيات عاشقها التفرغ لها تماماً والدخول في عوالمها المجردة ومنطقها الصارم يطالب الأدب بالانجرار إلى الحياة اليومية للآخرين وللنفس والسعي إلى اكتشاف أسرارها: أي التورط الكامل في الحياة.

وكأن هذا الجمع كان على حساب الاثنين. فعلي الشوك لم يكمل دراسته في حقل الرياضيات ليصبح أكاديمياً جامعياً ومبدعاً فيها كما هو الحال مع عالم الرياضيات ريمون نجيب شكوري الذي هو الآخر ترك دراسة الهندسة المعمارية واتجه إلى الرياضيات في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي ليصبح بعد عودته من الولايات المتحدة وإكمال دراسته للدكتوراه أستاذاً في كلية العلوم بجامعة بغداد ومؤسساً لمنهج الرياضيات المعاصرة التي تم اتباعها في منتصف السبعينيات من القرن الماضي في العراق.

على العكس من ذلك، لم يكمل الراحل علي الشوك دراسة الرياضيات في الولايات المتحدة واكتفى بشهادة البكالوريوس، وعند عودته للعراق عمل مدرساً للرياضيات في الثانويات حتى اضطراره مغادرة العراق عام ١٩٧٩. كذلك هو الحال مع الموسيقى الكلاسيكية، فالجيل الذي خرج من شرنقة مدينة قرون وسطى خربة كبغداد إلى نور الحداثة المفاجئ لم يواجه ذلك الإرث الموسيقي إلا بالقطيعة.

بدلاً من ذلك أصبح للموسيقى الكلاسيكية جمهور صغير يحضر في تلك البيوت الفخمة ببغداد جلسات استماع ونقاش للسيمفونيات الكبرى.

باعتراف علي الشوك كان للراحل نجيب المانع أثر بارز في خلق هذا الولع والدخول إلى عالم الموسيقى. وفي كتابه «عمر أكلته الحروف" يشير المانع أيضاً إلى عاملين لعبا دوراً في خلق ولعه بالموسيقى الكلاسيكية: شرح توفيق الحكيم للسيمفونية الخامسة لبتهوفن في روايته «عصفور من الشرق» حين حضر البطل حفلة موسيقية في باريس، والثاني هو تلك الأسطوانات التي كان يتخلص الجنود البريطانيون في قاعدة الشعيبة بالبصرة منها فتصل إلى السوق الشعبية وتباع بأسعار بخسة ومنها تعرف خلال الأربعينات على بيتهوفن وموتزارت وشوبان وغيرهم.

الفارق الآخر هو اهتمام علي الشوك بالميثولوجيا واستغراقه المعمق في قراءة الكثير من كتبه ولا أتذكر اسم الكتاب الذي أصدره عنها وأظنه ينتمي إلى الإعداد أكثر منه إلى التأليف. ومن فضائله على المكتبة العربية أنه ترجم الكثير من المصطلحات والمفاهيم في هذا الحقل إضافة إلى تعريفه بأحد العلماء في هذا الحقل: روبرت غريفز.

في الموسيقى قدم علي الشوك وبشكل معمق كل ما يحتاج إليه القارئ لمقاربة هذا الحقل الرفيع وهو مسلح بالمعرفة.

وفي مجال الرياضيات وعلاقته بالفنون الأخرى كان كتاب «الأطروحة الفنطازية" الذي اعتبر ولحد اليوم رائعته المتفردة، للكثير من القراء.

وقد ساعدته الرياضيات على الغور في الفيزياء الحديثة بحقولها المختلفة من علم الكون وفيزياء الكم وعلم الوراثة وغيرها. ولعل كتابه «الثورة العلمية الحديثة وما بعدها» (الصادر عن دار المدى عام ٢٠٠٤) معلماً فارقاً. وهو خليط ما بين التأليف والإعداد. والحقول التي تضمنها تشير بشكل مثير للإعجاب مدى اطلاع الفقيد الشوك بهذه الحقول المعقدة والمختلفة وقدرته على المحاججة مع هذا الرأي أو ذاك.

في هذا الكتاب وجدت علي الشوك ابن جيله الذي تربى على الفكر المادي فكانت محاججته ضد بعض أفكار أحد مكتشفي وصائغي علم فيزياء الكم الدنماركي نيلز بوهر استنادا إلى كتاب لينين «المادية والنقد التجريبي"دليلاً على أن الفرد يبقى منتمياً إلى عصره وجيله حتى لو تغيرت قناعاته السياسية لاحقاً.

في هذا الكتاب يقدم علي الشوك مساهمة مهمة في تعريب عدد كبير من المصطلحات العلمية المعقدة بصيغة معبرة ودقيقة.

تأتي المرحلة الرابعة الأخيرة من حياة علي الشوك وهو يقترب من الثمانين: إنه الأدب الذي ظل قارئاً ملماً له أكثر منه مبدعاً. وفي رواياته الثلاث الأولى التي قرأتها وجدت أنها أقرب لرواية السيرة الذاتية منها إلى الرواية التقليدية. والشخصيات هي أصدقاء وزملاء ورفاق التقى بهم في رحلة الحياة.

كأن علي الشوك في اندفاعه الأخير يكتشف أنه كان عليه التفرغ للأدب منذ البداية حتى بوجود نوازع قوية تجره بعيداً عنها: كأن وجود أكثر من معشوق بالنسبة إلى العاشق تفقده القدرة على سكب العاطفة كاملة في آنية واحدة فتتوزع هذه العاطفة بشكل غير متساوٍ على عكس قانون الأواني المستطرقة الذي يجعل السائل يأخذ نفس المستوى في جميعها.

مفاجأة أخرى في رواياته: معرفة علي الشوك بالمحيط البريطاني وتغلغله فيه مدهشة وهو الذي قدم إلى لندن في أوائل التسعينيات لاجئا أي بعد تخطيه سن الستين، وهذا بالذات إنجاز فريد يحسب له.

الشيء الآخر وكما قال هو: ولعه بالمرأة الذي ظل مخفياً بسبب طبيعته الخجولة الحيية تجلى بشكل مثير للاهتمام (والجدل) في هذه الروايات.

سيظل الإرث الفكري الذي تركه علي الشوك محض اهتمام أجيال تعقبنا من عراقيين وعرب بشكل عام. ففيها من الغنى الذي لا يقدم معرفة بهذه الحقول الأربعة فقط: الرياضيات والعلوم، الموسيقى، الميثولوجيا والأدب بل هي تمنحهم فرصة التعرف على الإنسان نفسه: الإنسان سواء كان علي الشوك أو الإنسان ابن جيله أو الإنسان بشكل عام، أي أنفسهم.

علي الشوك : الثوري الأرستقراطي الذي هرب إلى الكتابة

سـعـد هـادي

كان علي الشوك يريد أن يؤلف كتاباً عن ستندال (١٧٨٣ ــ ١٨٤٢) والموسيقى، لكنّ المأساة العراقية أورثته كما يقول كآبة حادة، فاضطر إلى التخلي عن المشروع، ثم عاد اليه بعد صدور طبعة جديدة بالإنكليزية لكتاب «مذكّرات معجب بنفسه"(٢٠٠٣). وكان عليه أن يعيد قراءته من جديد ليؤلف كتاباً عنه بعنوان «ستندال"(دار المدى) حيث يصف الشوك قراءته الراهنة لرواية «الأحمر والأسود»(١٨٣١) بأنّها رحلة في عالم طوباوي ينتشله من الواقع الرهيب الذي يعيشه (أو نعيشه). إنه يجد يوتوبياه من خلال القراءة، أوليس العمل الفني بتعبير ستندال وعداً بالسعادة؟

أمّا سرّ إعجاب صاحب «الأوبرا والكلب» بهذه الرواية، وبجزئها الثاني خصوصاً، فيعود الى غرامه بعالم الأرستقراطية. وإذا كان هذا العالم بحد ذاته آسراً كما يقول، فإن ستندال أضفى عليه حيوية أكثر بإقحام بطله جوليان سوريل فيه ليكون محوره بفضل الكفاءات التي يتمتع بها، مع أنّه منبوذ طبقياً. كان ستندال يعلم جيداً أنه يفتقر الى الوسامة، فهو كما وصفه صديقه بروسبير ميريميه مؤلف «كارمن"رجلٌ «بدين، قصير، ممتلئ الجسم، لكنه مفعم بالحيوية». وقد قال له ستندال ذات مرة في لحظة بوح: هل تصدق؟ سأكون في غاية السعادة لو غيرت نفسي الى رجل ألماني، أشقر مديد القامة، وأتجول في باريس بهذه الهيئة».

لكن Stendhal واسمه الحقيقي هو هنري بيل، اضطر بدلاً من ذلك الى تغيير اسمه الى زهاء ٢٠٠ اسم مستعار، ليس استجابة لنزوات، بقدر ما كان لتضليل الرقابة الرسميّة التي كانت تترصد كتاباته ورسائله وأوراقه الخاصة. مع ذلك، لم يكن ستندال ثورياً جماهيرياً، كان ثورياً أرستقراطي المزاج، يشعر بأنّ رواياته تستحق أكثر بكثير مما قوبلت به في أيامه. كانت النساء أكبر إلهام لمؤلفاته، شعر دائماً بأنه يكتب لأجلهن، ولا سيما أنّ أبطاله من الرجال كانوا نسخاً منه في إطار ما. لقد جرب محاولة نادرة كما تقول سيمون دو بوفوار، لم يجربها روائي قبله، إذ أسقط نفسه «بالمفهوم الهندسي» في صورة شخصية أنثوية. ويصف الشوك ماتيلدا بطلة «الأحمر والأسود»، بأنّه لا توجد شخصية روائية أنثوية تفوقها سحراً. إنها الأرستقراطية الرومانسية التي لا يعجبها العجب، بما في ذلك وسامة ونبالة وثراء كل فتيان طبقتها. هي معبودة القراء بسبب جنونها الذي يبقى من أجمل ما ابتكرته يد روائي، وخصوصاً في تذبذب مشاعرها تجاه جوليان، فتارة تهيم بحبه حد التذلل، وتارة تتجبر عليه حد النظر اليه كحشرة. وقد يكون ذلك تعبيراً صادقاً عن السأم الذي باتت تعاني منه الأرستقراطية بعدما تزعزعت مكانتها منذ ثورة ١٧٨٩. بينما كانت روايته الكبيرة الأخرى «دير بارم» (١٨٣٩) وتصور الصراعات السياسية في إمارة إيطالية بأسلوب يذكر بدسائس عصر النهضة، تمثل انعتاقاً من رواية الفروسية، فإن «الأحمر والأسود"هي فاتحة الرواية الحديثة بكل معنى الكلمة. إن رواياته تضج بالسياسة.

ومع أنّه يعتبر السياسة في العمل الروائي أشبه بطلق ناري في حفلة موسيقية، الا أن رواياته ــ كما يقول الشوك ــ تحمل أبعاداً سياسية واضحة. فهو يتحدى فيها الممنوعات كلّها، من بينها السياسة والصراعات الطبقية الى جانب الدين والجنس. وقد لامس الجنس المحرّم في «دير بارم» لكنّه لم يجرؤ أن يذهب بعيداً. هناك مقال في الجزء الثاني من الكتاب لبيار بابيري بعنوان «حول السياسة في دير بارم» ضمن مقالات عديدة ترجمها علي الشوك لعدد من الكتّاب والنقاد كتبوا عن ستندال ورواياته، يرى بابيري أنّ فعل الهروبية في الرواية ينطوي على مغزى سياسي عميق، فإذا كان المرء غير قادر على تغيير المجتمع القائم، فبوسعه تبني مجتمع آخر في كتابته، وبالتالي سيتغير كل شيء في المظاهر والأهمية.

هكذا.. ترجل علي الشوك

باسم عبد الحميد حمودي

صباح الجمعة الماضي ١/١١، رحل الصديق الاستاذ علي الشوك في احد مستشفيات لندن عن ثمان وثمانين عاما. ياله من عمر طويل بالنسبة لاخرين ممن لم يفعلوا في حياتهم شيئا، لكني اشعر ان عمر علي الشوك كان قصيرا لانه خزين معرفي هائل، لديه الكثير مما حرمنا من معرفته. لان سنوات عمره لم تتسع له ولا لنا لان نزداد متعة ومعرفة عن طريقه في الموسيقى والادب والفلسفة واللغة. في كل متع المعرفة التي يحتاجها الانسان الواعي. ولد علي الشوك في محلة الشوكية ببغداد عام ١٩٣٠ وكان دار ابيه وداره تقع في (شويرع) امام الاذاعة اللاسلكية العراقية في الصالحية وعلى مقربة من دار والد مظفر النواب حيث كنا نزورهما في منتصف خمسينيات القرن الماضي. درس علي الشوك الرياضيات في مرحلة الليسانس في الجامعة الامريكية في بيروت ثم ارسل عام ١٩٤٨ ببعثة حكومية الى الولايات المتحدة لدراسة الرياضيات وتخرج مدرسا بارعا فيها.

يقول الاستاذ الشوك في مقالة له عن الكتابة، انه كان لا يلحن اثناء قراءة النصوص في المدرسة الثانوية ولكنه كان لا يحب درس الانشاء، وكان يقرأ كثيرا وفي ايام المراهقة كانت صديقاته بطلات جين اوستن وتولستوي ودوهاميل، بطلة كل رواية يقرأها، فقد كانت مسالة الحب المباشر او وجها لوجه. كما يفعل شبان اليوم. صعبة ولكنها ليست مستحيلة!. فعل علي الشوك في مسئلة الحب ما لم يفعله احد، فقد احب بصدق جارة له وبدأ يكتب الرسائل لها، ولكن هذه الرسائل لم تصلها مباشرة بل عن طريق شقيقها الذي كان صديقا حميما له ويتفهم موقفه، لذلك كان ينقل الرسائل بامانة الى شقيقته واحدة تلو الاخرى!. ويبدو ان الفتاة كانت متونسة او متباهية بهذه الرسائل فقد كانت تطلع اختها الكبرى واخواتها الاخريات على الرسائل!.

عندما احست الاخت الكبرى ان الرسائل جادة وان ال الشوك سيطلبون يد اختها حملت كل الرسائل لوالدها الذي كان حصيفا هادئا واستطاع ايقاف علي عن الاستمرار في الكتابة في وقت تهيأت فيه بعثته الى بيروت.

واذا كان مثقفو بغداد وبيروت قد تعرف اكثرهم على علي الشوك عبر كتابه (الاطروحة الفنطازية) وهي درس في اللغة المغايرة وجمع الثقافات، فان معظمهم لم يكونوا يعرفون في الاستاذ الشوك قبل هذا دقة العمل الثقافي الرصين كمحرر رئيسي في مجلة (المثقف) التي كان يصدرها خريجو الجامعات الامريكية في الستينيات، وكان الشوك عمودها الرئيسي. كان دقيقا في تحرير المواد وهو لا يتحرج من الحوار مع امثالنا من هواة كيفية (التدوين)، واقصد هنا الكتابة التي تحافظ على الوضوح والجملة القصية والتنقيط واستخدام الفارزة في موضعا والنقطة عند انتهاء الجملة.

اذكر انا درسنا ذلك في (العالية) على يد استاذنا الدكتور فاضل حسين وقد ناقشته ايامها في (المثقف) وهو يريد نشر مقالتي عن القصة القصيرة. كان وجهة نظري ان نظام الترقيم puncttion في العربية يختلف عن نظامه في الانكليزية، اذ لا وجود (للسمي كومة) في العربية كمثال. وقد شجعني صديقنا المشترك المرحوم عدنان البراك على الكتابة ضده في هذا المجال في جريدة (صوت الاحرار) الذي كان البراك مع بديعة امين يتولى تحرير الصفحات السياسية، وكان علي الشوك وعبد المجيد الراضي يتولى تحرير الجانب الثقافي. هنا خضت معركة التنقيط في صوت الاحرار دون جرأة على الاشارة الى الشوك، اذ ناقشني بصددها الاستاذ كاظم سعد الدين وخطاب العبيدي وعدنان البراك يحرض. ضاحكا. على النيل من علي الشوك، والشوك قد اخذ الامر مثلنا بجد في التصويب والتنقيح.

لم يكن الشوك يجامل احدا في الادب والفكر، وظلت افكاره عبر دراساته طافحة بما يثري الفكر والحواس وخذ مثلا : الموسيقى الاليكترونية، كيمياء الكلمات، اسرار الموسيقى، الموسيقى بين الشرق والغرب، الكتابة والحياة.

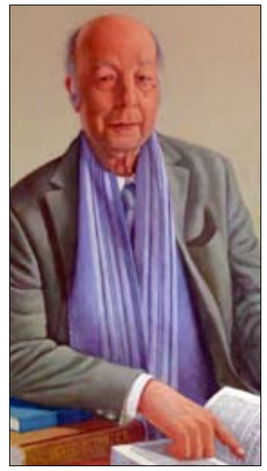

علي الشوك ومراثي المدينة

علي حسن الفواز

علي الشوك ذاكرة حية للمدينة، ولروح بهجتها، ولتحولاتها الكبرى، فهو يهجس تفاصيل تلك التحولات، يستشرف أفقا غائرا، أو موتا يصنعه الاستبداد، وهذا الموت الانطولوجي هو المجال السردي الذي ظل يلاحقه الشوك، بوصفه موتا للمدينة، وموتا للمثقف الحر، الرومانسي والثوري، والمهووس بالبحث الضدي عن الحياة، ليس بمعناها الايديولوجي، والطبقي، بل معنى الرحيل الى انسانية تلك المدينة..

عوالم الشوك هي عوالم جيل ثقافي كامل عاش ارهاصات تحول المدينة، وخروج من عتمة"الاستعمارات"الثقافية، مثلما هي عوالم انفتاح حضري لسيرورة المدينة، في قيم حريتها وتحول عمرانها..

هذه العوالم هي عوالم المثقف أيضا، المثقف الحالم، والمتسائل، والوجودي، ومدوّن سيرة المدينة، وحين يستشرف الكاتب العراقي المغترب علي الشوك فضاءات السيرة الذاتية، فانه يستعيدها سيرة لعوالمه المتخيلة، وسردياته التي تستكشف يوميات المكان/المدينة، وحيواته التي يسري القلق في عوالمها وفي علائقها بالمكان، اذ يجد في لعبة الاستعادة تلك محاولة للهروب من الزمن ومن مثيولوجياته"المحلية"والتي تتركه دائما عند الكثير من البواعث النفسية المضطربة التي تنبشها التساؤلات، والتي تتحول في روايته الجديدة"مثلث متساوي الساقين"الصادرة عن دار المدى الى ما يشبه البحث في المصائر المتقاطعة، واليوميات التي تغوي على استكناه محمولاتها المحسوسة، والتي يستعيد من خلالها الشوك ذاكرة المدينة التي تسكنه هاجسا مقلقا، والتي يستعيدها مدينة دافقة، حميمية رغم قسوتها ووحشتها.

في هذه الرواية ينحني الشوك على ذاكرته بوصفها خزّانا للسيرة، وفضاء متخيلا لاستعادة زمنه الشخصي المجدب، ولاغترابه الذي يطلقه الى احالات تضعه عند سردية المدينة/ بغداد وهي تتكشف وتتعرّي عبر ثيماتها الصراعية الحاشدة برعبها السياسي، ووقائعها التي تترسم هزيمة الانسان، وخواء الانتلجنسيا العراقية وهي تواجه قمع السلطة، واستلابها الداخلي، مثلما تواجه موتها الرمزي وخراب احلامها وعلائقها المسوخة.

تقودنا هذه الرواية الى استقراء سيرة تاريخية ومتخيلة لمثقف عراقي استغور فضاءات سيرة الامكنة العراقية وعاش الكثير من عوالم صراعاتها، اذ تبدو هذه الصراعات وكأنها محمولات رمزية تعبّر عن حراك ابطاله المثقفين واغتراباتهم، والذين يعيشون ازمات وعيهم الشقي للحرية والمكان المستعاد، مثلما يعيشون ازماتهم الوجودية في مدن المنفى، حيث لا تبدو تلك المدن الاّ متاهة يتقصى فيها اسرار وجده، وبحثه التعويضي عن وظائف إشباعيه، وعن لحظات وجودية تعيده الى فكرة الكائن قبل اغترابه، وبما يجعل الروائي امام الرغبة الدائبة في أنسنه هذه المدن التي يكثر حضورها مثل براغ ولندن وبرلين، اذ يبدو تكرار هذا الحضور نوعا من الاستشعار القلق الذي يدفعه الى البحث عن المدن التي هرب اليها الكثير من المثقفين العراقيين، مثقفي الايديولوجيا واليسار، والذين يصطنعون لهم في هذه المدن صراعات تشبه تلك التي كانوا يعيشونها في المدينة الشاحبة، والحاضرة بقوة استعادية في سيرته السردية..

هذه الصراعات المستعادة لا تبدو بعيدة عن عوالم الروائي، اذ يستعيد عبرها صور شخصياته ويومياته المشغولة بهواجس بطله المثقف الذي هو خليط من البطل الوجودي والايديولوجي اليساري الحانق على واقعه وعلى السلطة، والذي يعاني من فوبيا الملاحقة والمراقبة، والتي كثيرا ما نجدها كثيمة صراعية في رواياته، اذ استغرقت هذه الثيمة الشوك في روايته السابقة"عشب احمر"والتي يحمل البطل هشام المقدادي همومه الوجودية في المكان والوعي بوصفها قناعه الذي يواجه بها أزماته الانسانية الداخلية، فضلا عن ما تمثله من كشوفات عميقة للمسكوت عنه ازاء ما يواجهه من ازمات سياسية واخلاقية كثيرا ما يصطنعها بطله المثقف/ المغترب الذي ظل يعيش حيوات حاشدة بأنواع ملتبسه من الصراعات الداخلية، لكنها المهووسة ايضا بقلق بحثه عن الحرية واسئلتها، والتي تفترض ان هروبه الى المنفى، ومساكنته مدنه الضاجة بالحياة هو الوجه الآخر لاغترابه داخل الاقنعة، اذ يكون هذا المنفى هو الملاذ الاضطراري المشوب بفجيعة ما يهجس به من احساس مرعب بالغياب، والذي يتحول الى باعث على استيهامات إشباعيه للتعويض عن حرمانه النفسي والوجودي، والذي يتمظهر عبر ازمة وعيه القلق إزاء المكان النوستالجي المحكوم بالحضور والاستعادة المتخيلة، لكنه العالق ايضا بأوهام ما علق به من رعبه الشخصي من السلطة الغاشمة، تلك التي تدفعه تحت هاجس التعويض الى استعادة مراثيه ازاء المدينة/مكانه الإيهامي، وازاء ما تصطنعه من تعويضات، والتي تتركه نهبا لشهوة استعادة ذاته المضطربة في توصيفها الظاهراتي استعادة وعيه لثيمة اغتراب بطله العاطل رمزيا عن ممارسة الحرية واللذة..

في سيرة علي الشوك يكتشف وعي هذا البطل المثقف الزائف والقلق من خلال معطيات ما يبدو ظاهرا في صراعه الاشكالي–الذي يساكنه دائما– والمستعاد بين شفرات الامكنة التي يعيشها في الواقع وبين التي يستعيدها سرديا، اذ تبدو هذه الامكنة المتقاطعة"المستعادة والغائبة"وكأنها تعبير عن فداحة اغترابه، وقسوة وعيه، وعن مرارة وجوده المستعاد، فضلا عن كونها تعبيرا عن ما يهجس به ازاء ازمة الانتماء وازمة الهوية، بصفتها عناوين عن الصراع الانطولوجي القائم في حياة المثقفين العراقيين في المنفى، والذي يتجسد من جهة اخرى عبر مظاهر انثربولوجية تلامس فكره بحثه الدائم من اجل المعنى الانساني للوجود والحرية وانعكاس تداعياتها النفسية على الذات العراقية المطرودة والقلقة، والمصابة بفوبيا الامكنة. فالبطل في الرواية هو نموذج المثقف القلق الذي يحلم كثيرا بالحرية، لكنه ايضا المستلب وجوديا ازاءها، حيث يكون ذاكرة القمع حاضرة بكل قسوتها وتلصصها، والتي تسبغ على المكان صفة"المكان المعادي"مقابل ما يصنعه في المكان الاستعادي من احاسيس تعويضية للمكان الاليف، وهذا التقابل هو يفجّر هواجسه ما يثير وعيه الشقي، اذ كثيرا ما يستعيد بطله توازنه لكي يواجه الكثير من التحديات بحثا عن قوته الاخلاقية العميقة التي يمكنها كفالة توازنه الداخلي وسط احتدامات وتشوهات تحوطه من الخارج وتجسّه من الداخل..

رواية"مثلث متساوي الساقين"تستبطن الكثير من عوالم الشوك في انشغالاته الثقافية ومرجعياته المعرفية، اذ يحمل العنوان شفرته الرياضية – ميدان عمله الرئيس– مقابل ما يتضمنه من تشفير لاستدعاء معرفي واجتماعي، فهو اذ يضع هذه العتبة او الثريا كما يسميها القاص محمود عبد الوهاب وسط فضاء تأويلي، فانه ايضا يمنحها دلالة تعبيرية للبحث عن التوازن الداخلي في المكان، والذي يعيش اغتراباته البطل والروائي في آن معا، فهو تارة محمول على نوع من التجريد البصري والدلالي الباعث على اصطناع شفرات داخلية فيها الكثير من الاحالات والايهامات، وتارة اخرى يكون هو النزوع الى التجسيد، حيث الكائن الباحث عن هويته، والتي يصطنع لها نوعا من التبئير الذي يمارس وظيفة الكشف عبر الرمز، وعبر توظيف حمولاته التعبيرية والدلالية في استكناه عوالم انسية للمدن التي يعيشها، والتي يغترب فيها، وللأصدقاء، ولشخصياته الاخرى، والتي يبصرها بعيون مشوبة كثيرا بالاستعادة، تلك التي تجعل من مفهوم التوازي – مثلث متساوي الساقين – دلالة على القوة العميقة التي تساكنه، والتي تتحول الى بواعث دافعة للبحث عن التوازن الداخلي الذي يعيش غيابه البطل المغترب، بكل ما يعنيه هذا الغياب من خراب روحي واضطراب وعزلة ونوستالجيا واستعادة غير منضبطة للتخيلات التي تثير اضطرابه وهواجسه دائما..

ان ما تثيره هذه الرواية من هواجس، تترك الأثر على طبيعة ما يستحضره الروائي من استيهامات غاوية، تلك التي تكون باعثه لاستعادة ملامح حميمة وغائمة للأمكنة والوجوه التي يعيش اغترابها، والتي يعيش قلق استعادتها، اذ تتحول الرواية تحت هذا الهاجس الى ما يشبه كتابة الحنين، والتي تبدو الاقرب في التوصيف الى السيرة بوصفها سردا، تلك التي تجعل من بطله"هشام البغدادي"نموذجا للبطل الواقعي الذي يلبس قناع علي الشوك، والذي يمنحه القوة والدافعية للتعبير عن المعاني العميقة للبحث عن خلاصه الوجودي، عبر خلاص ما يمثله من نموذج ثقافي للانتلجنسيا العراقية التي عاشت حميمية المكان وقسوته، اذ يمثل هذا النموذج في جوهره قناعا لمثقفي الطبقة الوسطى العراقية في الخمسينيات، وصورة لأزمتهم الصراعية التي رافقت فقدانهم قوتهم المعنوية بعد الثورات والانقلابات التي احدثت شرخا في عمق الحياة العراقية، خاصة مع سيطرة البعثيين على السلطة عام ١٩٦٣. ورغم ما يستهل به الروائي روايته بانها امتداد لرواية سابقة"عشب احمر"الصادرة عام٢٠٠٧ وان حضور البطل الروائي ذاته، الاّ ان ما تحمله هذه الرواية تضع هذا البطل امام عوالم اكثر رعبا وقلقا، واكثر استغوارا للحيوات العراقية المتعددة التي يعيش بين سوانحها المثقف اغترابات مركبة، وجودية وسياسية وانسانية وجنسية، والتي تترك هذا البطل امام نزعة دائمة للهروب من الامكنة الطاردة، والبحث عن امكنة اخرى وحيوات رمزية لمثاله الطبقي والثقافي، لكن هذا الهروب والمغادرة يظلان يحملان الكثير من ملامح وجهه الانساني الغامر بالكآبة والفقدان والرعب الداخلي.

رواية"مثلث متساوي الساقين"عمدت الى تكون شهادة او سيرة لزمن اغترابي عاشه المثقف العراقي، واطلّ من خلاله على سيرة الامكنة"امكنة النوستالجيا والمنافي المتعددة"مثلما هي تعبير عن شحوبها، وعن متاهة اصدقائه الذين عاشوا في سيرته اغتراباتهم الداخلية والخارجية، فضلا عن نزوع الروائي الى فضح سيرة السلطة الشوفينية، تلك التي اسهمت في انتاج هذا الرعب الانساني، وهذه المنافي التي تحولت الى شتات والى اوطان طارئة يعيش فيها المثقفون على المعونات والرواتب التي تدفعها جهات دولية سياسية او حزبية معينة، وحتى جهات مشبوهة احيانا، اذ يظل ابطاله الواقعيون يعيشون ازماتهم الوجودية والانسانية بنوع من الفوبيا القهرية، وكأنهم ابطال الجحيم الذين تقتادهم اقدارهم الى مستويات غرائبية من العذاب والموت والايهام بالخلاص..

واذا كان الروائي او كاتب السيرة لا يمنح لمخياله السردي حضوره الفاعل في التعاطي مع تشكيل بنية روائية تتراكب عوالمها، واصواتها وهويتها التي يمكن ان تكشف عن ما يمكن تسميته بـ"السردية الكثيفة"التي تسبغ على الابطال الواقعيين نوعا من التعالي السردي الذي يمكن ان يتفجر من خلاله الواقع والحيوات والصراعات، الاّ ان الروائي وهو نموذج للمثقف العضوي العميق الذي يرى دورا انسانيا ومعرفيا وجماليا للمثقف، يجد في مهمة كتابة هذه السيرة تحت سطوة الايهام الروائي بمثابة موقف من العالم الذي يعيش ازمته الانسانية والوجودية، وازمة انسانه المحاصر والمنفي باغترابات عميقة، وموقف من سعار السلطة والايديولوجيا الذي افقده لذة المعيش والاطمئنان والتواصل، واغترابه عن رومانسية الامكنة الحميمة، واغتراب الطبقة الوسطى التي تمثل روح الحراك الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في العراق لحد سنوات الخمسينات..

هذه الرواية/ السيرة هي شهادة عميقة على عذابات المثقف العراقي وهو يرى اغترابه العميق، وموته الانطولوجي الفاضح، وربما هي شهادة على موت الكثير من الاشياء التي تخصه– الاصدقاء، اليوميات، الامكنة، الافكار، الحبيبة – ورغم اصرار البطل الذي يستعيده علي الشوك كنموذج للبطل الاخلاقي، الا ان هذا الاصرار يظل محفوفا بالقلق والخوف والموت الذي افقده صديقه في المنفى وبطريقه تتركه عند هاجس فوبيا السلطة التي تطارده دائما..

انها رواية استعادة، ورواية تذكر، تضعنا عند عتبة الحاجة الضرورية لقراءة تاريخنا السياسي المعاصر الذي يضج بالكثير من الاسرار والفضائح والشهادات والخرابات والاحلام المجهضة والموتى الاحياء.

ورحل علي الشوك الأرستقراطي اليساري في مغتربه اللندني

شكيب كاظم

في يوم الجمعة الحادي عشر من يناير/ كانون الثاني ٢٠١٩، رحل الكاتب الموهوب علي الشوك، في أحد مشافي لندن، عن تسعين سنة، وإذ أؤكد صفة (الكاتب) فلأنه سئل ذات مرة؛ أي النعوت أقرب إلى نفسه، فاختار أن يوصف كاتباً، هو الذي أرسل في بعثة دراسية إلى جامعة بركلي في الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الفيزياء، لكن رغبته في دراسة الرياضيات، دفعته إلى دراستها أكاديمياً، وكان من المؤمل أن يواصل دراسته العليا، لكن حدوث التغيير في يوليو/تموز ١٩٥٨ دفعه للعودة إلى الوطن، والانغماس في العمل السياسي، وزاول التدريس في المدارس الثانوية العراقية، لكن نفسه التواقة إلى المعالي ما رضيت له أن يمضي العمر مدرساً مغموراً، يطوي ذكره الموت.

كان يجد في نفسه قابليات لا تحد، لذا طرق أبواباً في الكتابة شتى، هو الذي كان يصف نفسه قارئاً جيداً، يتوق كي يصبح كاتباً، فكتب «الأطروحة الفنطازية"بداية سبعينيات القرن العشرين أردفها بـ»الداداءية بين الأمس واليوم»، كما كتب الرواية، ومنها رباعيته الروائية «السراب الأحمر. سيرة حياة هشام المقدادي»، ولتكون «فتاة من طراز آخر» الحلقة الرابعة والأخيرة من مشروعه الروائي هذا.

لقد ظل علي الشوك يتوق إلى كتابة رواية أجمل، أو كما يصفها رواية مذهلة، أما لماذا لم يكتبها فلانشغاله بقراءات متشعبة وكتابات متفرقة، كما يصفها هو في سيرته الذاتية الحياتية التي أصدرتها (دار المدى) سنة ٢٠١٧ وحملت عنوان «الكتابة والحياة"وهو آخر ما كتب.

لقد عجبت من هذه القراءات البعيدة جدا عن مجال إبداعه، فهو فيزياوي ومختص بالرياضيات، دراسة ومهنة، وهو أديب وكاتب روائي في مجال الإبداع، لكنه يقرأ ويبحث في اللغات القديمة وجذورها وصلتها بالعربية، بالرجوع إلى مجلدات المعجم الآشوري الذي يزوده عالم الآثار العراقي فوزي رشيد، واللجوء إلى قواميس عبرية وآرامية، فضلاً عن دراسات مكثفة في الموسيقى كانت حصيلتها كتابا عن «الموسيقى الإلكترونية» نشرته سلسلة الموسوعة الصغيرة، التي كانت تصدرها دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد وحتى سنة ٢٠٠٣، فضلا عن قراءات في الأساطير السومرية والمصرية والكنعانية والعبرية واليونانية والرومانية والعربية، وقراءات في الميثولوجيا، والبحث المضني عن الجذور الأصلية للعديد من المفردات والاصطلاحات، ويظل توقه لكتابة الرواية مؤجلاً، والعمر الإنساني القصير لا يسعفك بالتأجيل، حتى لو كتبها فإنه يؤجل نشرها، أو (يطمرها) كما يقول نصاً.

لماذا هذا الطمر، والزمن ا لقا سي يترصد بنا كل مرصد؟ ألم يطمر روايته «الكلب والأوبرا» ست سنوات، ولولا حث الروائي فؤاد التكرلي على نشرها، لزاد الطمر ولربما لم تنشر. أيجوز هذا ونحن نسابق الزمن في سيره المتراكض نحو اللاأين؟ كما يحدثنا في مذكراته هذه، أنه وجد نفسه مكرسا لاهتمامات أخرى كالموسيقى والفيزياء، ويراها مهمة يجب أن تنال حقها من الاهتمام، قبل أن ينتقل إلى عالم الرواية. مع أنه خلق مبدعا وكاتبا، وهذه الانشغالات تأكل من جرفه الإبداعي، فالموسوعية في زمننا أضحت عبئا على القارئ، وستمسي أكثر وطأ على الباحث والكاتب، وإذا كان الاستطراد سمة الكتابة في أيام طفولتها، والجاحظ نموذج له، فان الزمن المتسارع، المعارف التي تزداد وتتضاعف سنوياً، ما عادت تسمح لنا بهذا التشعب والتوسع والاستطراد. لقد قدم الكاتب الموسوعي علي الشوك الشيء الكثير لثقافة العرب، ستبقيه في الذاكرة طويلا، وكان سيقدم الأبهى والأدوم، لو لم ينغمس في السياسة ولو لم يؤجل مشاريعه، ويرتمي في هذه التشعب والموسوعية.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
الاخراج الفني: خالد خضير
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
WWW. almadasupplements.com

علي الشوك.. غياب مرحلة مضيئة

علي حسين

عندما أصدر علي الشوك كتابه "الأُطروحة الفنطازيّة" العام ١٩٧٠، كانٍ الأمر أشبه بحدث ثقافي غريب: "كنتُ أُريد أن أكتب اللامكتوب" هكذا يخبرنا في مذكراته التي اختار لها اسم "الكتابة والحياة" الصادرة عن دار المدى. أوراق يأخذنا صاحبها للغوص معه في مرحلة مهمة من تاريخنا السياسي والثقافي، بدأت في واحدة من أجمل مناطق بغداد "كرادة مريم" العام ١٩٣٠، ومرت بمحطات كان فيها مصراً على أن يستبدل دراسة الهندسة المعمارية، بالرياضيات التي عشقها وغيّرت مصيره بالكامل ليتّجه إلى مهنة واحدة هي الكتابة: "في يوم من أيام ١٩٤٧، اتخذتُ قراراً في أن أصبح كاتباً! أما الرياضيات التي كنتُ أدرسها، فستكون نزهتي في حياتي».

في "الكتابة والحياة" نحن أمام شخصية تشبه حكيماً قادماً من زمن مختلف، يخشى على بلاده التي غادرها مجبراً بعد تجربة مريرة مع السجن والتعذيب، ويخفي خشيته بنوبات من الحنين والآسى أحياناً، على زمن جعل من العراق مجرد ذكرى لحلم يريد له البعض أن يمرّ سريعاً.

لم يشبه علي الشوك في الثقافة العراقية أحداً. عمل في أقصى غرائب الثقافة وعاش حالماً باليوتوبيا التي قرر مع أصدقائه ذات يوم أن يقيموا نموذجاً لها في واحدة من مناطق بغداد، بعيداً عن عيون السلطة. رائد بلا منازع في فن الكتابة الأدبية، وخبير بدقائق اللغة، مُلمّ بقواعدها، سابر لأغوار جملها ومفرداتها وحروفها وكلماتها جميعا. ظل يؤمن بأن الثقافة يمكنها أن تسرّب شعاع نور للمحبطين وللحالمين، ولهذا انتمى في شبابه للحزب الشيوعي، الذي وجد أفكاره مغرية، لأنها ببساطة تعد بحلّ التناقضات الطبقية، وتساوي بين الناس، لا أحد يستغل الآخر، هذا هو الحلم الباقي حتى بعد انهيار البلدان الاشتراكية.

في المذكرات نحن أمام كاتب يلاحقه شعور بالذوبان في الجسد الكبير للعراق، عبر شبكة مختارة من أصدقاء، وأحبّاء، لهم في مذكراته مكان متميز.

أعدت مع "الكتابة والحياة" قراءة مرحلة مهمة من تاريخنا، وكلما خيّل إليّ أنني أعرف علي الشوك من خلال كتبه، أكتشف وأنا أغوص في المذكرات أنني لا أعرفه جيداً. لأنّ العشاق الكبار أمثاله لا يوجدون لحظة واحدة خارج الكتابة والحياة.

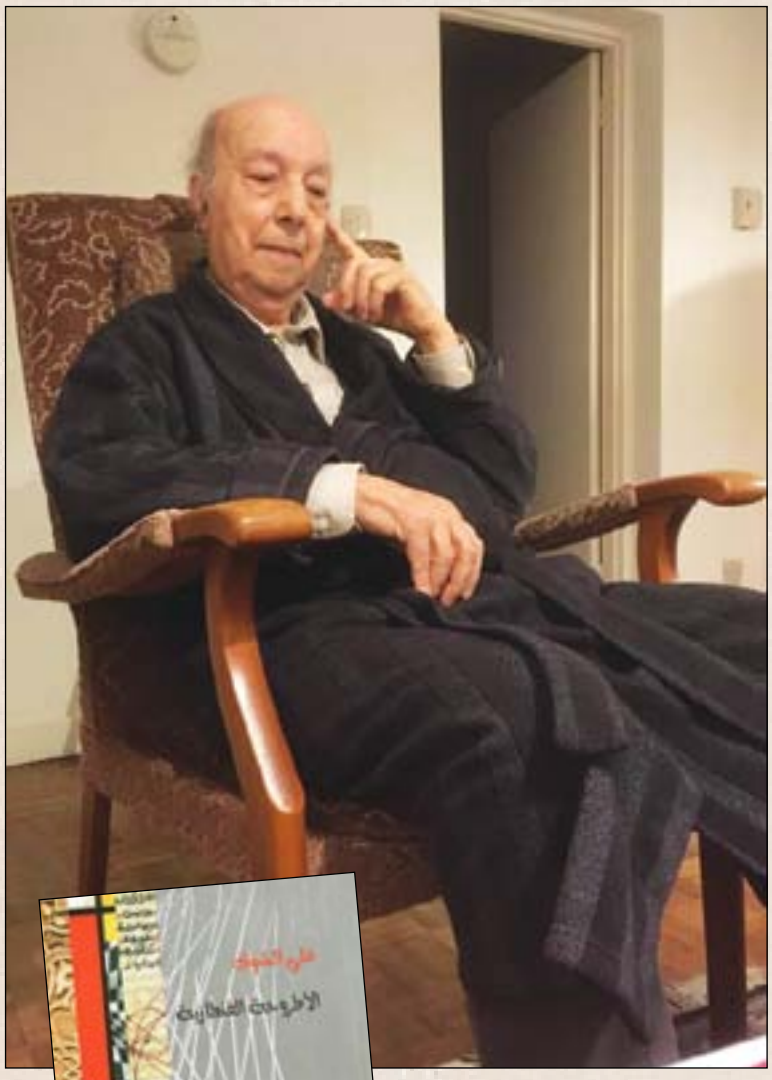

كان علي الشوك مغرماً بما يقدمه للقراء، سواء في مجال العلوم، او الرياضيات او الموسيقى التي يعشقها حد الوله، او الادب ومغامرات كتابه الكبار. يعتقد ان الفن والثقافة سيصنعان بلداً يكون ملكاً للجميع، ومجتمعاً آمناً لا تقيد حركته خطب وشعارات ثورية، ولا يحرس استقراره ساسة يتربصون به كل ليلة... عاش علي الشوك أسير أحلامه، متنقلاً في كل مجالات المعرفة، من الدادائية الى الاطروحة الفنطازية، مرور بالموسيقى الالكترونية وجديد الثورة العلمية متأملا في الفيزياء، باحثا في اسرار الكلمات، منقبا عن الاساطير التي ظلت ترافق البشرية، ليضع مرساته الاخيرة مع الرواية التي ظلت عشقه الاول منذ ان شارك اصدقاء له بترجمة ملحمة شولوخوف "الدون الهادىء»، ليصدر عددا من الروايات شكلت بمجموعها سيرة ذاتية لصاحبها، وسيرة ثقافية للعراق ابتداءً من فترة الخمسينيات ومروراً بالستينيات وحتى نهاية الثمانينيات،

الا ان النهاية المؤلمة هي رحيله على سرير المرض غريبا يئن على بلاد تنكر أبناءها.

يكتب غابريل غارسيا ماركيز: أن المتفردين لا يرحلون كأفراد.. يرحلون، كمرحلة بصموا على بدايتها وصار رحيلهم خاتمتها.